مصادر ثقافة الطفل العربى

obeikandl.com

obeikandl.com

يمكن أن نتفق هنا أن الثقافة الأدبية التى توجه خصيصاً إلى الأطفال . . تتسم بالحداثة ولا تتعدى نشأتها قرنين من الزمان . .

ونظراً لأن علم التربية بأسسه الحديثة قد أرسى نظرياته فى التربية والتعليم فى ضوء العصر فمن الطبيعى أن ننظر إلى ما أنتجته العصور السابقة على أنه أدب (تلقائى) يعوزه الإطار أو الشكل أحياناً . . بما يتناسب مع المتلقى كبيراً كان أم صغيراً فى ظل قدراته وعواطفه ووجدانه الخاص . !

إننا نميل هنا عن يقين إلى الرأى الذى يعتبر تراث الحكم والأمثال والمواعظ القديمة جزءاً من الانتاج الأدبى لهذه الشعوب سواء كُتب للكبار أم للصغار . . وسواء أكان شعراً أم نثراً . . وسواء حفظه الناس أم التزموه فى سلوكهم اليومى . .

ومن الصعب ـ قديماً ـ أن نفرِّق بين ما كان يُكتب للصغار وما كان يكتب للكبار . . حيث كان المستوى اللُّغوى السائد لا يفرِّق بين المتحدثين به أو المتعاملين معه . . بحيث لم يكن الصغير يجد صعوبة فى فهم ما يتلقاه داخل المدرسة . . إلى جانب أن الحكم والأمثال ـ خاصة فى مصر القديمة ـ كانت موجهة من والد إلى ولده (أو هى كتبت هكذا على لسان والده إلى ولده) وهذه الخاصية

ـ وأن أعطتها صورة التوجيه التربوى ـ لا تقف دليلاً وحدها على أنها موجهة للصغار فقط . . أو أنها كتبت خصيصاً لهم . . فربما قرأها الولد (الكبير) لأبيه أو جده . . وهكذا[1] . .

وهكذا الحال لدى العرب . . فمن غير المعقول ولغة قريش هى لغة القرآن . . ألا يتحدث بها الجميع كباراً وصغاراً . . بل إن العصر الجاهلى يخبرنا أن الصغار كانوا يقولون الشعر بهذه اللغة ذات المستوى الواحد الفصيح الجذل . . مثل لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير وطرفة بن العبد بما يجعلنا نتأكد من عدم وجود أدب كتب خصيصاً للأطفال وإن كان وجد لدى العرب فن ترقيص الأطفال . . وأغانى اللُّعب . . ووصايا الآباء للأبناء . . وكلها قد توجه للكبير وللصغير ما عدا فن ترقيص الأطفال الذى يوجه إلى المولود بغرض اللَّعب معه بالمناغاة واللحن والموسيقى وليس بالكلمة . !

وحينما نرحل مع التاريخ . . ومع التغيرات السياسة والانقسامات التى تميزت بالفتوحات ودخول جنسيات أخرى إلى الجنسيات الأصلية وبالتالى دخول أنماط الثقافة واللغة ـ خاصة لدى العرب المسلمين ـ نلاحظ أنه قد نشأت الحاجة إلى وجود أكثر من مستوى لغوى للتعامل مع فئات البشر . .

فمثلاً اختلف المستوى اللُّغوى فى الدواوين الحكومية عن المستوى الذى اتخذه الأدباء والشعراء فى إبداعهم . . عن ذلك

(١) أنظر تفصيل ذلك فى كتابنا : أطفالنا فى عيون الشعراء : فصل : التربية والتعليم فى مصر القديمة . مرجع سابق .

الذى التزمه الناس فى تحاورهم اليومى . .

وفى خضم الصراعات . . انتبه نفر من المفكرين إلى تربية الأطفال وإنقاذهم من أتون تلك الصراعات . . ووجدنا نظريات كثيرة للتعليم والمتعلمين وأسس التربية فى مجالاتها المختلفة . .

ومن هنا نشأت الحاجة إلى استقلال الطفل بأدبه وثقافته ولغته بعيداً عن أطماع وصراعات الكبار . .

والحق يقال إن الطرف الآخر من العالم قد سبق الشرق إلى التقاط الخيط وكتابة أدب الأطفال المعاصر . . على أيدى لافونتين (١٦٢٠ - ١٦٩٦) الذى استمد حكاياته من كليلة ودمنة وإيسوب ولقمان . . وجريم الألمانى (١٨١٢ - ١٨١٥) فى حكاياته الشعبية . . ثم إدوار لير وأغانيه التوفيقية (١٨٤٦) وهوفمان فى (أغانى الأطفال ١٨٤٦ أيضاً) - ولويس كارول فى أليس فى بلاد العجائب - وكارل ستاندبيرج . . وروبرت فروست وهانز كريستيان أندرسون (١٨٠٥ - ١٨٧٥) وغيرهم . .

أما فى مصر المعاصرة فقد بدأ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) فى حمل رسالة التربية فأصدر كتابه الشهير (المرشد الأمية للبنات والبنين) ومن موضوعات الكتاب : بيان عربية الأطفال - العقيدة الدينية - التعليم والتعلم - الوطن - الوطنية . . وهكذا .

وواضح أن هذا الكتاب لا يعتبر أدب أطفال بالمعنى العلمى وإن اهتم بتربيتهم وتثقيفهم . .

ولكن ما كتبه محمد عثمان جلال (١٨٣٨ ـ ١٨٩٨) فى ديوانه : العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ـ وأحمد شوقى (١٨٧٠ ـ ١٩٣٢) فى الجزء الرابع من ديوانه ـ ومحمد الهراوى (١٨٨٥ ـ ١٩٣٩)[١] ثم كتابات كامل كيلانى وسعيد العريان وأحمد برانق وغيرهم تدخل عن يقين فى إطار الإبداع الجيد للأطفال . .

وحينما تحمس كتاب الغرب والشرق إلى وجود أدب موجه خصيصاً للطفل . . كانت أمامهم مصادر كثيرة لجئوا إليها ليستمدوا منها مادتها الغزيرة ويبسِّطوها إلى وجدان الصغير . . وسوف نعرض هنا لأهم هذه المصادر التى اعتمد ويعتمد عليها كتاب الأطفال . .

***

(١) أنظر : محمد الهراوى شاعر الأطفال : تحقيق ودراسة : أحمد سويلم ـ ١٩٨٧ ـ المركز القومى لثقافة الطفل ـ القاهرة .

أولا : الموروث الشعبى

ويطلق عليه فى الغرب مصطلح الفولكلور . . الذى يدرس الثقافة التقليدية أو التراث الشعبى ويهتم دارس الفولكلور بكل شىء ينتقل اجتماعياً من الأب إلى الإبن . . ومن الجار إلى جاره مستبعداً المعرفة المكتسبة عقلياً . . سواء كانت متحصلة بالمجهود الفردى أو من خلال المعرفة المنظمة والموثّقة التى تكتسب داخل المؤسسات الرسمية كالمدارس . . والمعاهد والجامعات والأكاديميات وما إليها :

وطبقاً لهذه النظرية الشاملة فإن هذا العلم يهتم بهذه العناصر :

العادات الشعبية ـ المعتقدات الشعبية ـ المعارف الشعبية ـ الأدب الشعبى ـ الفنون الشعبية ـ الثقافة المادية[1] .

ومصطلح فولكلور Folklor . . من ابتداع الانجليز . . قام بصياغته عالم الآثار الإنجليزى (وليم جون تومز) فى عام ١٩٤٦ ليدل على دراسة العادات المأثورة والمعتقدات وكذلك ما كان معروفاً حتى ذلك الوقت بشكل غامض (بالآثار الشعبية القديمة) .

ويتألف هذا المصطلح من مقطعين : Folkبمعنى الناس . . و Lor بمعنى معرفة أو حكمة فالكلمة تعنى حرفياً معارف الناس أو

(١) علم الفولكلور جـ١ : د. محمد الجوهرى ـ دار المعارف ١٩٧٨ صـ٥٣

حكمة الشعوب . .

وفى التقرير الأول لمجلس جمعية الفولكلور الإنجليزية نجد وصفاً لوظيفتها ومجال عملها فى العبارة التالية :

(إن الفولكلور يمكن أن يطلق على ما يشمل جميع ثقافة الشعب . . التى لا تدخل فى نطاق الدين الرسمى ولا التاريخ . . ولكن تنمو دائما بصورة ذاتية . . وعلى هذا . . فإن ما فى الحضارة من الموروثات الفولكلورية الباقية . . وكذلك مظاهر الفولكلور لدى القبائل الهمجية ـ البدائية ـ كلاهما ينتمى إلى التاريخ البدائى للنوع الإنسانى)[1] .

ولكل أمة موروثها الشعبى الذى يحرص كتابها على تقديمه إلى أبنائها ـ صغاراً وكباراً ـ ومهما اختلفنا على إطارات وأشكال هذا الموروث . . فإن من أهم سماته الاحتفاظ بما يتفق مع التطور . . والاستغناء عما تلفظه . . وتعديل ما يستحق التعديل . .

لهذا فإن عناصر هذا الموروث وأبطاله ورموزه وسيره وعاداته . . تخترق الزمن . . فيصل إلينا منها ما يحمل دلالات العصر . . وما يمكنه أن يعيش فى الوجدان العام بصرف النظر عن عنصرى الزمان والمكان وهى معطيات تحتفل بالقيم العليا التى تصدر عنها الوحدات الاجتماعية . .

ويعد الأدب الشعبى أهم حلقة من حلقات التراث الشعبى .

---

(١) بين الفولكلور والثقافة الشعبية ـ فوزى العنتيل ـ هيئة الكتاب ـ ١٩٧٨ صـ٣٠

ولا خلاف هنا على القول بعراقة الأدب الشعبى مثله فى ذلك مثل كل عناصر التراث الشعبى ولكن هذه الخاصية لا تعنى الجمود على أثر شعبى بكل ما فيه من مضامين ووظائف ورموز ودلالات .

فالأدب الشعبى عريق . . ولكنه حى يتردد بين الآحاد والجماعات . . وهو لذلك يتطور بتطور الشعب[1] .

ويمكننا أن نعرض لأهم مصادر الثقافة الشعبية التى اتكأ عليها كتاب الأطفال فيما يلى :

١. ألف ليلة وليلة :

تعد ألف ليلة وليلة ـ أو الليالى العربية كما أطلق عليها مترجمها الإنجليزى فى مطلع القرن الثامن عشر ـ من بين الكتب القليلة الفريدة فى تأثيراتها فى القراء . . وفى حجم استقبالها ورواجها . . وهى مجموعة من القصص تُحكى على لسان شهرزاد إلى الملك شهريار . . وشهرزاد هذه إبنة الوزير التى طلبت من أبيها أن يسمح لها بالزواج من ذلك السلطان الغاصب المرير والسوداوى المتغطرس «شهريار» . . فبعد غدر زوجته الأولى . . قرر شهريار أن يتزوج واحدة كل ليلة ليقضى عليها فى صباح اليوم التالى حيث لم يعد يثق بالنساء . . ورأى فى هذا الأسلوب خلاصه الوحيد من غدرهن . . ولم تكن شهرزاد على شاكلة غيرها من النساء . . فهى تعتمد على فطنتها ودرايتها ومعرفتها الواسعة . . إنها أكثر إلماما

(١) التراث الشعبى ـ د. عبدالحميد يونس ـ دار المعارف ١٩٧٩ صـ٢١

بوضعه النفسى من غيرها من النساء . . فجاءته بمجموعة من القصص تشاغله بها كل ليلة . . فاعلة به فعل السحر . . مداوية جراحه النفسية وآلامه كلها . . حيث لا تخلو قصصها من ذكر غدر النساء . . ولكنا وهى تكتسب ثقته ـ ليلة ليلة ـ كانت تذكر له أقاصيص أخرى عن وفاء المرأة وذكائها . . كما تذكر له صوراً للحكام العادلين والحكام الفاسدين . . إلى أن لان قلبه إلى شهرزاد . . فتزوجها وأنجب منها . . وهو مشدود إلى قصصها ألف ليلة طويلة . . وفى الليلة الأولى بعد الألف عفا عنها ولم يقتلها . . وسعد بها وبأولاده . .

ذلك هو إطار الليالى . . بصفة عامة . . والتى ألهمت الكتاب والشعراء فى شرق العالم وغربه . . وأثارت خيالهم . . فكتبوا عنها . . واستلهموا قصصها برؤى مختلفة[1] .

وتعرف ألف ليلة بالفارسية باسم (هزار أفسانه) أو الألف خرافة . . وقد سمى بدل ذلك ألف ليلة . . أما اسم ألف ليلة وليلة فيرجع إلى أن العرب ـ فى رأى المسعودى ـ كغيرهم من الشرقيين يتطيرون من الأعداد الزوجية . . وربما كان لسبب آخر وهو ميلهم المألوف إلى نوع من التسجيع فى تسمية الكتب . . وهذه التسمية العددية إنما قصد بها ـ فى الكتاب الفارسى ـ عدد كبير من الحكايات غير معين . . وأن التقسيم إلى ألف ليلة وليلة وضع فى العصور المتأخرة ويبدو ذلك فى اختلاف النسخ المخطوطة من

---

(١) أنظر مسرحية (شهريار) أحمد سويلم ـ سلسلة مواهب ـ هيئة الكتاب ـ ١٩٨٢

الكتاب . . كما يشمل الجانب الأكبر من ألف ليلة وليلة على شواهد شعرية مصنوعة ركيكة (تبلغ ١٤٢٠ مقطوعة)[١] .

وترجمت النسخة الفارسية إلى العربية فى عصر هارون الرشيد وزيد عليها الكثير فى الشام والعراق . . وفى مصر خاصة حتى استقرت على ما هى عليه الآن .

وترجمت الليالى على يد أنطوان جالان إلى الفرنسية عام ١٧٠٤ ونقلت إلى اللغات الأخرى من هذه النسخة ومن العربية كذلك . . وقد طبعت فى القاهرة بالعربية عام ١٢٩٧ وفى بيروت عام ١٣٠٠م . .

ويقسم الباحثون الليالى إلى مجموعات ثلاث :[٢]

١ ـ قصص مقتبسة من أصول قديمة عربية وشرقية .
٢ ـ قصص بغدادية تنتمى إلى عصر الرشيد .
٣ ـ قصص مصرية وضعت فى العصر الفاطمى والمملوكى مثل : السندباد ـ حسن البصرى ـ معروف الإسكافى ـ قمر الزمان ـ علاء الدين والمصباح السحرى ـ الحصان المسحور ـ حلاق بغداد وغيرها . .

وتعتبر ألف ليلة وليلة من أقوى وأغزر المصادر التى استعان بها الكتاب لتقديمها للطفل لتميزها بعناصر التشويق والإثارة والخيال

---

(١) ألف ليلة وليلة ـ دراسة تحليلية . . ليتمان . . ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين ـ كتب دائرة المعارف الإسلامية ـ دار الكتاب اللبنانى ـ ١٩٨٢ ـ ص٣٢ وما بعدها .

(٢) أنظر فى ذلك كتبا كثيرة أهمها : ألف ليلة وليلة ـ سهير القلماوى ـ دار المعارف ـ ١٩٧٦ ـ ألف ليلة وليلة فى النقد الانجليزى (١٧٠٤ ـ ١٩١٠) د. محسن الموسوى ـ دار الرشيد للنشر بغداد ـ ١٩٨٢ ـ الموسيقى والغناء فى ألف ليلة وليلة ـ د. حسين نصار ـ منشورات اقرأ بيروت ـ ١٩٨٠ ـ وغيرها كثير . .

والخرافة والقيم الخلقية والخير والشر . . وكثير من الأسس التربوية المبثوثة فى الكتاب !

وهنا ينبغى أن نلاحظ أمراً مهماً ونحن نتعامل مع الليالى . . ذلك أن الفكر العربى ـ قديماً ـ لم يكن ينظر إلى الجنس والحديث عنه نفس النظرة التى نحن عليها الآن . . بل كان يعتبره جانباً من جوانب الثقافة العربية . . تدل على ذلك قصائد الشعراء الكبار من أمثال أبى نواس والمتنبى وغيرهما . . وكذا كتاب النثر العربى مثل الجاحظ وغيره . . ولهذا فإن القصص التى تتضمن تلك الإيماءات الجنسية العارية لم تكن لدى أجدادها بالذى يعاقب عليه القانون . .

ومع هذا فنحن أمام تراث شعبى عظيم . . ومن واجب من يقترب منه ـ من أجل الأطفال ـ أن يدقق ويصطفى وينتقى . . ويعيد صياغة قصصه بما يتلاءم مع وجدان الصغير المعاصر . .

ومن الذين قدَّموا قصصاً للأطفال من ألف ليلة . . كامل كيلانى (قدم عشر قصص) ثم قدم سلسلة أخرى بعنوان (قالت شهرزاد) . . واستوحى منها سلاسل أخرى مثل (عجائب القصص ـ قصص فكاهية) وغيرها . . كما تناولها آخرون مثل محمد أحمد برانق وسعيد العريان وحسن جوهر وأمين العطار وأمين دويدار ومحمود زهران ومحمد شفيق عطا وعطية الأبراشى . . وغيرهم من الكتاب المعاصرين فيما بعد . .

وتعددت أساليب تقديم ألف ليلة للأطفال . . فمن الكتّاب من حافظ على محور القصة وأضاف من عنده بعض الأحداث

الشائقة . . لكنه لم يخرج عن الأصل وأبطاله . . ومنهم من أضاف أبطالاً وأحداثاً فى رؤية معاصرة . . ومنهم من كتبها نثراً . . ومنهم من كتبها شعراً مما يدلنا على ثراء هذه القصص وإمكان تقديمها إلى الطفل المعاصر . .

٢. كليلة ودمنة :

يعد كتاب «كليلة ودمنة» من أهم مصادر التربية الثقافية للطفل . . اعتمد عليه كتاب كثيرون فى تقديم الحكمة والقيم والمثل للصغار على ألسنة الحيوانات[١] .

وهو للكبار لا يصيبه القِدَم بمرور الزمن . . وإنما يرى فيه كل عصر ما يشفى أوجاعه . . ويُزكّى طموحه الدائب إلى تغيير الواقع إلى الأفضل . .

وتاريخ كليلة ودمنة هو تاريخ الحكمة المعلقة على ألسنة الحكماء حتى إذا واجهوا بها السلطان أفرغوها فى رموز عميقة الدلالة . . وكفّوا أنفسهم عنت المساءلة والمحاسبة وهم يسوقونها فى ألوان وأقنعة وإطارات . . ظاهرها لهو للعامة . . وباطنها سياسة للخاصة .

وبالرغم من اختلاف المؤرخين حتى الآن فى كيفية نقل الكتاب من الهندية إلى الفارسية إلى العربية . . وحول عدد أبوابه وترتيبها . . وما زيد عليه . . وحول أسبقية ناقليه ومترجميه . . فإن

(١) أنظر : كليلة ودمنة : الأصل والتأثير بين الترجمة والنظم : أحمد سويلم ـ مقال فى الأهرام الدولى ٨٨/٨/١

الثابت أن الكتاب قد ولد على أيدى بيدبا الفيلسوف الهندى فى أربعة عشر باباً على ألسنة البهائم والسباع والوحش والطير . . ليقدمه إلى الملك دبشليم ـ من سلالة من قهرهم الإسكندر الأكبر حين زحف على الهند حوالى ٣٢٦ق.م ـ ثم نقله إلى الفهلوية ـ برزويه الطبيب الفارسى فى عهد كسرى أنوشروان ثم نقله ابن المقفع إلى العربية وزاد عليه فى عام ٧٥٠م فى عصر الخليفة المنصور الذى حرص واليه سفيان بن معاوية على قتل ابن المقفع لتورطه فى وضع نصّ الأمان الذى ضيّق فيه على المنصور لصالح عمه عبدالله بن على .

ويبدأ منذ هذا التاريخ اهتمام العالم شرقاً وغرباً بكليلة ودمنة . . حيث نقل من العربية إلى لغات العالم الأخرى ومن بينها الفارسية والهندية (لضياع الأصل الهندى والأصل الفارسى) .

أما طبعات اللغة العربية المعاصرة فإن أشهرها نسخة د. عبدالوهاب عزام العالمية عن مخطوطة مكتبة أيا صوفيا فى اسطنبول المكتوبة عام ٦١٨هـ ـ ونسخة الأب لويس شيخو اليسوعى عن مخطوطة مكتبة دير الشير (٧٣٩هـ) ـ ونسخة الشيخ خليل اليازجى ـ ونسخة محمد حسن المرصفى المتداولة فى مصر . .

وقد كان للكتاب أثر كبير فى الأدب العربى وغيره من الآداب العالمية . . فقد ألف على منواله كثيرون ، منهم ابن الهبارية (المتوفى ١١١٠م) فى كتابه : الصادح والباغم ـ وأبوعبدالله

القرشى فى كتابه (سلوان المطاع فى عدوان الطباع) ـ وابن عربشاه فى كتابه (فاكهة الخلفاء) وغيرهم من العرب كثير . .

ويعتبر لافونتين الفرنسى (١٦٢١ ـ ١٦٩٥م) أول من استلهمه فى حكاياته والتى تداولها العالم بلغات متعددة . . وقد أضاف لافونتين إلى استلهامه كليلة ودمنة . . أعمالاً أخرى مثل خرافات إيسوب اليونانى ـ وحكايات لقمان ـ وبعض الحكايات العربية الأخرى . .

وكان محمد عثمان جلال أول من ترجمه عن لافونتين فى كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) وأحمد شوقى فى (حكايات الأطفال) والتى جعلها فى إطار سفينة نوح . .

ثم توالت الأعمال المستلهمة منه نثراً وشعراً على أيدى كامل كيلانى . . وعبدالله فريج وابراهيم العرب وجبران النحاس وبرانق وغيرهم من المعاصرين . .

وينقسم الكتاب إلى أبواب هامة مثل :

ـ باب الأسد والثور . . يضرب مثلاً للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال .

ـ باب الحمامة المطوقة . . يضرب مثلاً لإخوان الصفاء وأحوالهم .

ـ باب البوم والغربان . . يضرب مثلاً للعدو مهما أظهر تملقاً وتضرعاً .

ـ باب القرد والغيلم . . يضرب مثلاً للرجل الذى يطلب حاجة فإذا ظفر بها أضاعها .

ومن المسلم به أن التعامل مع كليلة ودمنة وقصصه . . ينبغى أن يتحلى بالحذر والتفكير فليس كل ما يطرحه الكتاب يصلح أن يقدم للأطفال كما هو . . وإنما هناك كثير من المحاذير . . التى تتطلب التروىً وإعادة النظر فيما تطرحه قصصه من قيم وأخلاقيات وأسس تربوية تدخل إلى وجدان الصغير فى ارتياح شديد . .

وللأسف . . وجدنا بعض هذه القصص التى قدمت للصغار لم يتنبه كاتبوها إلى هذه المزالق ونأت عن الهدف من تقديم هذا المصدر للأطفال المعاصرين . .

٣ـ خرافات ايسوب :

وتنتمى هذه الخرافات أو الحكايات الخيالية إلى الأدب الإغريقى القديم . . والذى عُرف بفن التقريع . .

وإيسوب هذا ولد عام ٦٢٠ ق.م وعاش فترة من حياته عبداً يعانى أغلال الرق . . لكنه اشترى حريته بالحيلة البارعة والذكاء النادر . .

تقرب إيسوب إلى ملك مدينة ساروس . . فأسره بحديثه وحكاياته وخفة ظله . . فانتدبه الملك للسفر إلى بعض الولايات التى تحدث بها قلاقل وفتن مختلفة . . لكى يفض المنازعات

ويوقف الفتن والقلاقل عن طريق حكاياته وخرافاته على سبيل الإلهاء والحكمة معاً . . لكن حياة إيسوب انتهت بالقتل فى (دلفى) دفاعاً عن مطالبته بحية الإنسان وإرساء الفضيلة والمحبة . .

وقد كتبت سيرة إيسوب عدة مرات . . من أهمها تلك السيرة التى كتبها أ . د . وينتل فى عام ١٩٤٣ وأراد أن يعيد تلك الخرافات الحكيمة إلى صاحبها فأفاد من الحقائق اليسيرة السابقة إفادته من الخرافات نفسها واحتفظ بمقومات العصر والبيئة ولم يخرج على شىء منها[١] .

وكان لافونتين أول من ترجم أعمال إيسوب ليضمنها خرافاته فى القرن السابع عشر . . ثم استمدَّ منها مادته فى العربية محمد عثمان جلال . . وأحمد شوقى . . وغيرهما . .

وهذه إحدى مواقف إيسوب التى نسوقها هنا لندرك مدى حكمة هذا الرجل :

ألقى إيسوب خطاباً ذات يوم أثناء اجتماع عام فى مدينة (ساموس) وذلك بعد صدور حكم بالحبس مدى الحياة ضد أحد السياسيين المشاغبين واستهل إيسوب حديثه بقوله : حاول أحد الثعالب عبور نهر . . فأصيب بجرح بليغ من جراء اندفاع المياه . . فراح يحاول معالجة جرحه دون جدوى . . وكان عليه أن يتحمل آلامه بعد أن عششت داخل الجراح القُراد . . تلك الحشرة التى

(١) أنظر : إيسوب : أ . د . وينتل ترجمة د . مختار الوكيل . . سلسلة ألف كتاب ـ لجنة البيان العربى ١٩٥٦

تعيش على امتصاص الدماء من مصادره الأصلية . .

ومر على الثعلب قنفد فتأثر لحال الثعلب وتطوع لإنقاذه من القراد . . فرفض الثعلب طلب القنفد قائلاً : لا أريد منك ذلك . . فأنا أخشى بعد أن تنزع من جسمى هذه القرادات التى ملأت بطونها من دمى أن تهاجمنى قرادات أخرى أكثر جوعاً وشراسة . . فتقضى علىّ !

ثم قال إيسوب : إن ما فعله القراد بالثعلب يشبه ما فعله بكم هذا الرجل . . لقد أصبح هذا الرجل غنياً بحيث لن يؤذيكم بعد اليوم . . فإن قتلتموه اليوم . . ظهر سواه يكون جائعاً فيتحكم برقابكم ويقضى على آخر ما لديكم من مال . .

إن حكم ايسوب مملوءة بالذكاء والطرافة . . وبالقيم الإنسانية . . والتفكير السليم . . تلك الأمور التى يمكن أن نستقى منها ما يلائم عقلية الصغير . .

٤. أمثال لقمان الحكيم :

تعود خرافات وأمثال لقمان إلى عهد قديم جداً . . وقد وردت أكثرها فى العهد القديم . . بعضها على لسان الحيوان . . وبعضها مواعظ وأمثال اشترك فيها الإنسان والطبيعة . . لكنها صيغت بعد ذلك وأضيفت إليها وأصبحت من المصادر الفولكلورية لأدب الأطفال . .

هى إذن تنتسب إلى العبريين . . وقد استخدموها منذ أبعد العصور . . تحت اسم (فن الأبولوجيا) حيث درج الأمراء منذ طفولتهم الباكرة على سماع المَلَق وحيث كان أكثرهم يرقون العروش ليمارسوا حكماً استبدادياً مطلقاً فلا يجرؤ أحد على أن يبذل لهم النصح إلا مقنَّعاً خشية أن ينال الموت جزاء اجترائه على جرح كبريائهم . . ومن ثم ساق الحكماء حكمهم تحت قناع رمزى هو فن (الأبولوجيا)[1] .

وهناك من يؤكد أن لقمان هذا هو الذى جاء ذكره فى القرآن وأنه عاش الجاهلية على حين ينفى هذا آخرون وينسبونه إلى عصور أقدم من العصر الجاهلى . .

وعلى أية حال نحن أمام أمثال تعد مصدراً ملهماً لأدب الصغار . . وأسوق هنا إحدى هذه الحكم :

مرض أسد فذهب إليه الثعلب ليعوده ووقف ببابه قائلاً : كيف أنت يا ملك الوحوش فرد الأسد : لِمَ لا تدخل يا أبا الحسن . . وكان جواب الثعلب : لأنى اقتفيت آثار أقدام الحيوانات التى زارتك قبلى فوجدتها قد دخلت ولم تخرج !

والمغزى بالطبع : لا يجوز الإقدام على عمل قبل تمحيصه والتروىَّ فى نتائجه . .

---

(١) أنظر : حكايات من لقمان ـ تعريب : عبده حسن الزيات ـ لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٨

٥. السير الشعبية :

لم تصل إلينا السير الشعبية التى أنتجها الخيال العربى والتى نعتبرها ذخيرة أدبية كبيرة . . وإنما وصل إلينا مجموعة قليلة منها هى : عنترة بن شداد ـ ذات الهمة ـ فتوح اليمن ـ السيرة بالهلالية ـ الظاهر بيبرس ـ سيف بن ذى يزن ـ حمزة البهلوان ـ على الزيبق ـ فيروز شاه ـ أحمد الدنف . . وغيرها كثير لم يصل إلينا . .

والسير الشعبية كانت تطوراً فنياً لمراحل فنية أخرى سبقتها فى الوجود . . ذلك أن تاريخنا الأدبى ينقل لنا فى أولى مراحله أشتاتاً من حكايات تدور حول العالم العربى القديم قبل الإسلام[1] .

وأول هذه السير التى عرفناها . . سيرة عنترة بن شداد . .

ونلاحظ أن السير الشعبية قد مرت بمراحل كثيرة حتى وصلت إلينا فى صورتها النهائية . . فقد تعدد رواتها . . وأضاف كل منهم ما رآه ملائماً لعصره . . حتى جاء العصر الفاطمى . . حيث كتبت أغلب السير من مجموع ما وصل إلى هذا العصر من الروايات المختلفة . .

وقد جاءت السير الشعبية تصويراً حياً للبطل العربى الذى لا يقهر . . وتتضافر هذه الصورة مع الأبطال الجانبيين فى محاربة

(١) أضواء على السير الشعبية ـ فاروق خورشيد ـ المكتبة الثقافية (١٠١) ـ وزارة الثقافة المصرية ـ ١٩٦٤ ـ ص٢٤

الشر الذى يرمز له ويسمى فى كل السير الشعبية بالكفر والخروج على الدين والعودة إلى عبادة الأوثان . . فكأن فكرة الخير والشر قد تشكلت فى هذه السير تشكلاً إسلامياً يتآلف مع العقيدة الإسلامية ولا يختلف معها . . ولهذا تقسِّم السير البشر إلى عالمين : عالم المؤمنين وعالم الكفار والملحدين . . وأيضاً تسوق إلينا عالم الجن والشياطين والسحرة والكهان بين الإيمان والكفر أيضاً . . ومن ثم تدور المعارك . . وتضيق المواقف وتنفرج . . فى تشويق بالغ وتصوير فائق . .

ولقد قدمت السير الشعبية فى أشكال مختلفة من التبسيط والتيسير والتلخيص إلى الكبار والصغار على أيدى كثرة من كتابنا المتحمسين لها من أمثال محمد سعيد العريان وفريد أبوحديد ومحمد برانق وعباس خضر وفاروق خورشيد . . والحق أنها ذخيرة لا تنفد مهما قدمت فى أشكالها . . وزاد لا ينتهى حينما نقدمها مصدراً جيداً من مصادر ثقافة الطفل العربى لا تقل قيمة ـ إن لم تتفوق ـ على هؤلاء الأبطال المعاصرين الذين يتفوقون بالبنُّورة السحرية . . والكومبيوتر وغيرها من الأدوات العصرية !

٦ـ الحكايات الشعبية العربية :

تحفل كتب الأدب العربى بالقصص القصيرة والحكايات الشعبية التى تصور حياة العرب فى الجاهلية والإسلام من خلال مواقف للكرم والفروسية والتسامح والصبر والشجاعة والاقتحام

والصدق . . وغيرها من الصفات التى يتحلى بها الإنسان الكامل . .

وقد جمعت مثل هذه القصص فى مصنفات كثيرة واجتهد كل جامع لها فى أن يسوق منها أشهرها وأقلها شهرة . .

كما أن قصص الأمثال العربية ـ الشعبية ـ تدل على حكمة هذه الأمة العريقة . . فالمثل العربى هو تلخيص حكيم لتجربة حياة . . أو لموقف نموذج يمكن أن يحدث للإنسان فى أى زمان ومكـان . . ومن ثم كان وراء كل مثل حكاية[1] .

كما أن الأدب العربى كذلك فيه شخصيات نموذجية تدور حولها حكايات ومواقف وتصبح الشخصية بطلاً تعرف به هذه الحكايات . . مثل حكايات جحا . . وحكايات أشعب . . وغيرهما . .

وكل هذه الحكايات تمثل كنوزاً تراثية تدعونا إلى أن ننبشها ونستخرجها ونعيد صياغتها لأبنائنا فى أسلوب مبسط وعلى أسس تربوية ملائمة . .

وقد اجتهد كثير من كتاب الأطفال فى تقديم ما أمكنهم من هذه الحكايات فى صور مختلفة قصصية وشعرية . . ومصورة . . وما زال الكثير من هذه القصص تدعو إلى تقديمها[2] .

---

(١) حاول المؤلف أن يجمع ٣٠ حكمة و٣٠ حكاية وكتب ٣٠ مقطوعة شعرية تترجم هذه الحكم للناشئة فى كتاب واحد هو (حكمة الأجداد) مؤسسة الخليج العربى ـ ١٩٨٩ .

(٢) أنظر : قصص العرب محمد أحمد جاد المولى وآخرون ٣جـ ـ عيسى الحلبى ـ ١٩٧١ . . فقد صيغت بدقة . . بحيث أصبحت أحد المصادر الممتعة لأدب الأطفال ـ وكذلك أنظر كتب الأمثال العربية المختلفة . .

ثانيا : الأساطير القديمة

ترتبط الأسطورة دائماً ببداية الإنسانية أو بداية البشر . . حيث كانوا يمارسون السحر ويؤدون طقوسهم الدينية التى كانت ـ فى تصورهم ـ سعياً فكرياً لتفسير ظواهر الطبيعة . .

ويعرِّف المعجم الفلسفى ـ الأسطورة ـ بأنها قصة خرافية تدور حول كائنات وهمية تصدر قوى طبيعية تكون الأحداث فيها رمزية ـ ويضيف المعجم ـ إنها صياغة فكرية أو نظرية صياغة فأفلاطون مثلاً يستخدم الأسطورة فى المسائل الفلسفية الكبرى . . فهو يصور المثل تصويراً أسطورياً . . سواء فيما يتصل بماهيتها أو بصلتها بعضها ببعض . . أو بصلتها بالمحسوسات كما أنه يستخدمها فيما يتصل بالله . .

وللأساطير تقسيمات كثيرة لكنها يجمعها أربعة أنواع هى :[1]

أ ـ الأسطورة الطقوسية وقد ارتبطت أساساً بالعبادة ـ مهما يكن شكلها وطريقتها وعنيت بإثبات الجانب الكلامى من الطقوس الدينية قبل أن تصبح (حكاية) لهذه الطقوس .

ب ـ الأسطورة التعليلية . . وقد وجدت طريقها إلى الوجود بعد ظهور فكرة وجود كائنات روحية خفيَّة فى مقابل ما هو

(١) الأساطير : د. أحمد كمال زكى ـ المكتبة الثقافية ـ هيئة الكتاب ـ ١٩٨٥ صـ٤

موجود فى الظاهرة . . ويتصل بها السحر . . وعالم الروح .

جـ ـ الأسطورة الرمزية . . وفيها نرى صفات الإنسان تُخلع بسخاء على الآلهة . . كما نرى الإنسان قادراً على مواجهة تحديات السماء . . وينتصر غالباً على ما نرى فى أساطير الإغريق والمصريين والهنود . .

د ـ الأسطورة التاريخية : وبطلها مزيج من الإله والإنسان . . أو قد تكتفى فترفعه إلى طبقة الأولياء . . فى محاولة لتجسيد فكرة الخير والشر ـ مثلما نرى فى على بن أبى طالب . . والسيد البدوى ـ ويوحنا المعمدان .

وللعرب أساطيرهم القديمة المرتبطة بالأوثان . . وبعصور الطوفان وعصر العماليق . . وعاد وثمود وغيرها من الأحداث والأبطال . . ومنها ما كتب شعراً ومنها ما كتب نثراً . . ومنها ما كتب مزيجاً من الشعر والنثر . .

وتعتبر الأسطورة لوناً من ألوان (التفريغ الشعورى) لدى الإنسان . . ولهذا أوجدها الإنسان لكى يحقق بها أحلاماً فى غير طاقة البشر . .

وحينما نتناول الأساطير ونقدمها لأطفالنا . . فنحن أمام مآزق كثيرة . . لكنها سهلة غير معقدة إذا انتبهنا إلى عناصر الخيال والقدرات الإنسانية الخارقة . . وتجسيد فكرة الخير ودحر الشر وغيرها مما يؤكد القيم الخالدة فى وجدان الصغار . .

وتتدخل البيئات فى إخراج الأسطورة وصياغتها . . ويرتبط ذلك بالعقائد والتقاليد والسلوك الاجتماعى والتطور التاريخى وغيرها من الظروف المتشابكة التى تلعب دوراً فى تلوين الأساطير . .

ثالثا : قصص الكتب المقدسة

والكتب المقدسة ثلاثة : التوراة ـ الإنجيل ـ القرآن . .

وهى مملوءة بالمواقف والقصص الإنسانية والدينية التى تعتبر مصدراً مهماً من مصادر أدب الأطفال . .

وتتلخص محاذير تقديم هذه القصص فى عالمنا العربى والإسلامى فى صعوبة تقديم كثير منها مسرحياً خاصة تلك التى ينتمى أبطالها إلى طبقة الأنبياء والمرسلين أو الصحابة هذا إلى جانب صعوبة التعبير عن هؤلاء الأبطال بالرسم فى الكتب . . ولهذا يلجأ الفنانون إلى التعبير غير المباشر . . أى حول الشخصية . .

وتعتبر قصص الكتب المقدسة . . وأيضاً سيرة الرسول الكريم وغزواته . . من أكثر الكتب قرباً إلى وجدان الناشئة . . فهم يجدون فيها زادهم الروحى . . ومثلهم العليا . . وقيمهم الدينية المفتقدة . .

والحق إن جوانب كثيرة من هذه القصص والمواقف لم تقدم

بعد . . وتدعو الكتاب إلى الاقتراب منها بحب وصبر وحاسة دينية مخلصة . .

رابعا : التأليـــف

ويعتمد التأليف ـ بالطبع ـ على الإبداع الخالص . . نثراً وشعراً . . وهو لا يعتمد على مادة سابقة . . وأيضاً لا يقتبس أو يلخص أو يعيد صياغة . . وإنما هو خلق جديد تماماً . .

وأعتقد أن ساحة الطفولة اليوم يقل فيها التأليف ـ أى الخلْق الجديد ـ ويكثر فيها الإعداد والاقتباس وإعادة الصياغة ـ نثراً وشعراً ـ وربما يلجأ الكتاب إلى هذا لطغيان المادة السابقة وطرافتها وملاءمتها وثرائها بكل ما يريده الكاتب المعاصر وأحسبها مادة لن تنفد أبداً !

***